(٤٥) أبو سعيد الخراز[١]

ذكر الشيخ أبي سعيد أحمد بن عيسى الخراز رحمه الله:

كان رحمه الله من كبارِ المشايخ وقدمائهم، وذا قدمٍ راسخةٍ في الورع والرياضة، مَخصوصًا بالكرامة، عالمًا بالحقائق، عارفًا بالدقائق، مُربّيًا للتلاميذ.

سُمّي: لسان التصوف، وله فيه أربع مئة تصنيف[٢].

عديمُ النظير في التجريد والانقطاع، وكان من بغداد.

صحب ذا النون، والنّباجي، وأبا عُبيد البُسري، والسريَّ، وبشرًا، وغيرهم.

وكان مجتهدًا في الطريق، وهو أوّلُ من اصطلحَ عبارة الفناء والبقاء.

نقل أنه قد أنكر عليه بعضُهم في بعض كلماته مثل ما نقل عنه أنَّ: عبدًا لله[٣]، رجعَ إلى الله تعالى، وتعلّق بالله، وسكنَ في قرب الله، قد نسي نفسَه وما سوى الله تعالى، فإن قلتَ له: من أنت؟ وأيَّ شيءٍ تريد؟ لم يكنْ له جوابٌ غيرَ الله.

---

(١) طبقات الصوفية ٢٢٨، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٦، تاريخ بغداد ٤/ ٢٧٦، الرسالة القشيرية٨٥، الأنساب ٥/ ٦٥، مناقب الأبرار ٤٧٧، تاريخ ابن عساكر ٧/ ١١٠، المنتظم ٥/ ١٠٥، صفة الصفوة ٢/ ٤٣٥، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣١٠، اللباب ١/ ٣٥١، مختصر تاريخ دمشق ٣/ ٢٠٤، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤١٩، مرآة الجنان ٢/ ٢١٣، الوافي بالوفيات ٧/ ٣٧٥ البداية والنهاية ١١/ ٥٨، طبقات الأولياء ٤٠، نفحات الأنس ١١١، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٩٢، الكواكب الدرية ١/ ٥١٠، شذرات الذهب ٢/ ١٩٢.

وقيل اسمه: إبراهيم بن عيسى.

(٢) لم يذكر له صاحب كتاب هدية العارفين صفحة ٥٥ إلا كتابًا واحدًا هو كتاب الصوم.

(٣) في (ب): أن عبدًا رجع.

أقول: معناه إذا قيل له: من أنت؟ وأيّ شيء تريد؟ هو يقول في الجواب: (الله)، أي: أُريد الله، ولا أريدُ غيره، فإنّي رجعتُ إليه، وتعلّقتُ به، فهذا العبد ساكتٌ عن جوابه، بدليل قوله: (قد نسي نفسه وما سوى الله)، فظهر أنَّ قوله: (لم يكن له جواب غير الله) أي جوابٌ عن قوله: أيّ شيءٍ تريد؟ لا عن قوله: من أنت؟ فلمّا لم يفهم هذا المعنى أنكرَ عليه. والله أعلم.

قال: يصلُ العبدُ إلى مقامٍ إن قيلِ له: أيُّ شيءٍ تريد؟ فيقول: الله الله، ولو كان لأعضائه ومفاصله لسانٌ؛ بل لشعورٍ على جسده، لقال: كلٌّ لله[1].

نقل أنه قال: صحبتُ الصوفيةَ، فما وقعَ بيني وبينهم خلافٌ. قيل: وكيف كان؟ قال: لأنّي كنتُ معهم على نفسي.

أقول: حاصلُ معناه أنّي كنتُ موافقًا لهم، مُخالفًا لنفسي، فلذا لم يقعْ بيني وبينهم مخالفة. والله أعلم.

نقل أنه قال: إنّي لو خُيّرتُ بين القربِ والبُعدِ لكنتُ أختار البعدَ؛ لأنّي لا أطيق القرب.

أقول: كأنّه يُشير إلى ما نُقل عن بعضهم: الغائبُ يموتُ من غاية الشوق، والحاضرُ يفوت من نهاية الذوق، تأمَّلْ تفهمْ، والله أعلم.

قال: كم خُيِّرَ لقمان بين الحكمة والنبوة، فاختارَ الحكمة، وقال: ليس لي طاقةُ حمل النبوة.

نقل أنه قال: رأيتُ في المنام مَلكَيْنِ نزلا من السماء، وسألاني عن الصدق، قلت: الوفاء بالعهود. قالا: صدقتَ، وصعدا السماء.

نقل أنه قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، فقال لي: هل تحبُّني؟ قلتُ: اعذرني يا رسول الله؛ فإنَّ حبَّ الله تعالى ملأَ قلبي، حتى شغلني عن حبِّك. فقال ﷺ: من أحبَّ الله فقد أحبّني.

---

(١) في (ب): لقال: كل الله.

قال: رأيتُ إبليس في المنام، فأخذتُ عصًا لأضربَه، فسمعت هاتفًا يقول: هو لا يفزعُ من العصا، إنّما يفزعُ من نورٍ يكونُ في قلبِ المؤمن. فقلت له: تعالَ. فتنحّى عنّي، وقال: إيش أعملْ بكم؟ أنتم طرحتُم عن نفوسكم ما أُخادعُ به الناس. قلت: وما هي؟ قال: الدنيا. فلمّا ولّى التفت إلي وقال: غير أنَّ لي فيكم لطيفةً. قلت: ما هي؟ قال: صحبةُ الأحداث؛ أي الصبيان.

أقول: ونقل عن أبي سعيد الخراز رضي الله عنه أنه قال: كلُّ باطنٍ يُخالفُه الظاهُر فهو باطل. يعني: من يدّعي علمَ الباطن، وطريقةَ المشايخ، وأنّه يُخالفُ شيئًا من ظاهر الورع، فدعواه باطلة عاطلة. والله أعلم[1].

نقل أنه قال: كنتُ بدمشق، فرأيت النبيَّ ﷺ في المنام جاثيًا مُتّكئًا على أبي بكر رضي الله عنه، وأنا أنشد بيتًا، وأضربُ بأُصبعي على صدري، فقال رسول الله ﷺ: شرُّه أكثرُ من خيره. عنى[2] السماع.

قيل: إنه كان له ابنان، فماتَ أحدُهما قبله، فرآه في المنام، وقال: ما فعلَ الله بك؟ قال: أَنزلني في جوارِ رحمته، وأكرمني. فقال: أوصني يا ولدي. فقال: لا تكنْ معاملتُكَ مع الله تعالى بسوء الظنّ. قال: زدني. قال: لا تطيق فوق ذلكم؛ ولكن ينبغي أن لا يكونَ بينك وبين اللهِ أكثرُ من قميص.

نقل أن الخراز رحمه الله عاشَ بعد هذا المنام ثلاثين سنة، ولم يلبسْ سوى قميصٍ صيفًا وشتاء.

نقل أنه قال: نفسي حملتني على أن أسألَ من الله تعالى شيئًا، فأمرني هاتفٌ أن لا أسألَ منه غيره، لا جرمَ أنّه قال: أستحيي من الله تعالى أن أجمعَ شيئًا لأيامٍ قليلة، بعد أن علمتُ أنّه ضامنٌ لأرزاق العباد كلِّهم برِّهم وفاجرهم، مؤمنِهم وكافرهم.

قال: كنتُ في البادية، فغلبني الجوعُ، والنفسُ تطالبني، فقصدتُ أن أسألَ

---

(١) قوله: (عاطلة. والله أعلم) ليس في (ب).

(٢) في (آ): خيره. كأنه عنى السماع.

من الله تعالى شيئًا أَطعمُهُ، ثم تنبَّهتُ أنَّ طلبَ الطعام ينافي التوكّلَ، فسكتُّ، فلمّا آيستِ النفسُ أخذَتْ في حيلةٍ أُخرى، وقالت: فإنْ لم تطلبِ الطعامَ، فاطلبِ الصبرَ. فهممتُ أن أسألَ الصبر، فسمعتُ قائلاً يقول: إنّا لا نضيع من توجَّه إلينا ويطلبنا حتى يحتاجَ إلى أن يطلبَ القّوةَ على الصبر. قال: فأدركتني العصمة.

نقل أنه قال: كنتُ نوبةً أخرى في البادية، وغلبني جوعٌ شديد، فرأيتُ المنزلَ من بعيد، ففرحتْ نفسي، ووجدتُ فيها سكونًا، فحلفتُ يمينًا أن لا أدخلَ القريةَ، وحفرتُ حفرةً[1]، ودخلتُ فيها، فسمعتُ صوتًا: أيُّها الناس، في الموضعِ الفلاني شخصٌ من أولياء الله، قد دخلَ في الرَّملِ وانستر فيه، فأدركوه. فجاءَ إليَّ جماعةٌ من القرية، وحملوني إليها، وأطعموني، وسقوني، ثم سافرت منها، ووجدتُ في اليوم الرابع ألمَ الجوع ومرارته، وظهر فيَّ ضعفٌ عظيم، فقعدتُ في مكاني، وسمعتُ هاتفًا يقول: إن أردتَ طعامًا نعطيك، وإن أردتَ سببًا تتقوّى به، ويسكنُ به جوعُك فنعطيك. قلتُ: إلهي، أُريد سببًا. فأعطاني قوَّةً، فقطعتُ بها البادية.

نقل أنه قال: كنتُ أدورُ في بعض الصحارى، إذا أنا بكلابٍ توجَّهتْ إليَّ قاصدةً لإيذائي، فلمّا وصلتْ إليَّ اشتغلتُ بالمراقبة، وكان فيها كلبٌ أبيضُ، فحمل عليها، ودفعها عنّي، وما فارقني حتى بعدتِ الكلابُ عنّي، وما رأيته.

قال: من لم يعتقدْ أنَّ الله مُحسنٌ، كيف يُسلِّمُ إليه قلبَهُ بالكلّية؟.

وقال: عداوةُ الفقراء بعضهم لبعضٍ إنَّما هي لغير الله تعالى. يعني: كيف أطمأن إلى غير الله تعالى.

وقال: سأل اللهُ أولياءه لأنَّهم لمَّا اختاروا اللهَ تعالى لم يرضَ اللهُ تعالى أن يلتفتوا إلى غيره، ولا أن يكونَ لهم راحةٌ إلا بالله[2] تعالى.

قال: إذا أراد اللهُ أن يتَّخذَ وليًّا يفتحُ عليه بابَ الذكر، فإذا حصلَ له لذَّةُ

---

(١) في (أ): وحفرت حفيرة.

(٢) في (أ): ولا أن يكون له راحة به.

الذِّكرِ يفتحُ عليه باب الفتوّة، ثم أطلعَهُ على أسرار فردانيته لينظرَ إلى جلاله وعظمته، فإذا نظرَ إلى جلاله وعظمته يبقى ببقائه.

و: أول مقاماتِ أهل المعرفة التحيُّرُ بالافتقار، ثم السرور بالاتصال، ثم الفناء بالانتباه، ثم البقاء بالانتظار، ولا يصلُ مخلوقٌ إلى هذا المقام إلا على مقداره، فإن قلت: هل وصل الرسولُ ﷺ إلى هذا المقام؟ ـ أي البقاء ـ قلنا: نعم، ولكن على رُتبته ومقداره.

أقول: يُشير إلى أنَّ البقاءَ الحقيقي إنَّما هو وصفٌ لله تعالى، لا يليقُ أن يتَّصفَ به إلاّ هو، وأمّا غيرُه فلا يبقى إلا ببقاءٍ لائقٍ به، موهوبٍ له من الله تعالى. والله أعلم.

و: من ظنَّ أنَّه يصلُ إلى مقامِ القُرب بجهده واجتهاده، فقد أوقعَ نفسَه في تعبٍ دائمٍ، ومن ظنَّ الوصولَ بلا جهدٍ واجتهادٍ، فقد أوقع نفسَه في هلاكٍ عظيم.

أقول: معناه أنه لا بدَّ من العمل والجدِّ والاجتهاد، وأمّا الوصولُ إلى المقصودِ فإنَّما هو بهداية الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. والله أعلم.

و: لا تجعلْ أوقاتكَ العزيزةَ مصروفةً إلاّ في أعزِّ الأشياء، وهو اشتغاله بالعبادة بين الماضي والمستقبل.

ومن كلامه أنه قال: من نظر بالفِراسة، فقد نظرَ بنور الله.

و: من عبادِ الله قومٌ أخرستهم خشيةُ الله تعالى، وإن كانوا فصحاء وبلغاء.

و: من استقرَّتِ المعرفةُ في قلبه، فإنه لا يَرى في الدارَيْنِ إلاّ الله تعالى، ولا يسمع إلاّ به، ولا يَشتغلُ إلاّ بعبادته.

و: الفناء عبارةٌ عن فناءِ العبد عن رُؤيته، والبقاءُ بقاؤه في الحضرة الإلهية.

الفناء التلاشي عن الحقِّ، والبقاءُ هو الحضورُ مع الحقِّ.

و: حقيقةُ القرب خلوُّ القلبِ عن جميعِ ما سوى الله تعالى، وسكونُ القلبِ في الله.

و: كلُّ باطنٍ يُخالفه الظاهر فهو باطل.

و: الذكرُ على ثلاثةِ أوجهٍ[1]: ذكرٌ باللسان والقلبُ غافلٌ، وهو الذكر في العادة. وذكرٌ باللِّسان والقلبُ حاضر، وهذا لطلبِ الثَّوابِ. وذكرٌ بالقلب واللِّسانُ ساكتٌ، ولا يعرف أحدٌ قدرَه إلاّ الله تعالى.

و: التوحيدُ أوّلُه الفناء عن الأشياءِ كلِّها، والرجوع إلى الله تعالى بالكلّية.

و: العبدُ العارفُ قبل الوصول يستعين بكلِّ شيءٍ، ثم بعد الوصول يحتاجُ إليه كلُّ شيء.

و: العلم ما يشغلك بالعمل.

و: سئل عن العارف: هل يبكي؟ قال: نعم، يبكي ما كان في الطريق، وإذا وصلَ إلى المقصود يزولُ بكاؤه.

و: لا يطيبُ عيشُ زاهدٍ يكونُ مشغولاً بنفسه.

و: الخُلقُ أن لا يكونَ لصاحبه همَّةٌ إلاّ الله.

و: التوكُّلُ اضطرابٌ بلا سكون، وسكونٌ بلا اضطراب.

أقول: يعني التوكّل هو الاضطرابُ والحركة، والسيرُ إلى الله تعالى، ومع الله، وفي الله بلا سكون، إذ لا يتصوّرُ السكون [إلاّ] في الأخير، وإن تصوّر في الأوّلِ وفي التوسط تردَّدَ، ثم بعد هذا الاضطرابِ يحصلُ له سكونٌ وقرارٌ واطمئنان مع الله من جميع ما سوى الله تعالى. والله أعلم.

قيل له: لأي معنًى لا تصلُ حقوقُ الفقراء من الأغنياء إليهم؟ قال: أمّا أولاً فلقلّةِ الحلال عندهم، وثانيًا فلأنَّ الفقراءَ قد اختاروا البلاء.

نسألُك اللَّهم الهدايةَ والتوفيق، والدِّرايةَ والتحقيق إنّك على ما تشاءُ قدير، وبالإجابةِ جدير.

* * *

(١) في (ب): الذكر ثلاثة.